

العُدَّةُ عَلَى الْعَجَرِيَّةِ عُدَّةٌ عَلَى الْإِسْلَامِ



الْعُدْوَانُ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ

عُدْوَانٌ عَلَى الْإِسْلَامِ

الْمَكْتَبَةُ الْعَرَبِيَّةُ دَارُ الْفَيْفِ

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



إهداء

.. إِلَى عَمَلَةِ الْقُرَّانِ وَعُمَاةِ اللُّغَةِ .
.. إِلَى الْمُرَاطِبِينَ الَّذِينَ يُرْكُونَ لَنَا هُمْ مُرَاطِبُونَ .
.. إِلَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ سُلْعَةَ الْقُرَّانِ وَفُصْحَاءَهُ ، وَيَقْفُونَ
بِهَاسَانِي مَهَابَتِ الرَّحْمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .
.. إِلَى الَّذِينَ هُمْ قَلِيلٌ فِي خَاصِّ أُمَّتِهِمُ الْبَاسِمِ ، كَثِيرٌ فِي
لِسَانِهَا الْخَالِصَةِ .
.. إِلَى الَّذِينَ قَدْ عَقَدُوا الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يُعِيدُوا لِأُمَّتِهِمْ
فَقْتَهَا بِنَفْسِهَا ، وَيُثَرِّكُهَا ، وَيُزِينُهَا ، وَيَبْلُغُهَا بَعْدَ أَنْ
خَاسَرَهَا الشَّكُّ فِي كُلِّ ذَلِكِ .
.. إِلَى كُلِّ هَؤُلَاءِ الْفَرِيدِ هَذِهِ الطَّلِمَةُ .

عبد الرحمن أفندي الكباشي

قَالَ الثَّعَالِبِيُّ ^(١) :
 « مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَبَّ رُسُلَهُ مُحَمَّدًا ،
 وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ الْقَرِيبَ أَحَبَّ الْقَرِيبَ ،
 وَمَنْ أَحَبَّ الْقَرِيبَ أَحَبَّ الْقَرِيبَةَ النَّبِيَّ نَزَلَ بِهَا أَفْضَلُ
 الْكِتَابِ عَلَى أَفْضَلِ الْعَقْلِ وَالْقَرِيبِ ،
 وَمَنْ أَحَبَّ الْقَرِيبَةَ عُنِيَ بِهَا وَتَابَتْ عَلَيْهَا وَصَدَقَتْ هِمَّتُهَا لِنَبِيِّهَا ،
 وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ،
 وَشَرَعَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ...
 اغْتَفَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الرُّسُلِ ،
 وَالْإِسْلَامُ خَيْرُ الْمِلَلِ ،
 وَالْقَرِيبُ خَيْرُ الْأُمَمِ ،
 وَالْقَرِيبَةُ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَاللَّسِنَةِ ،
 وَالْإِقْبَالُ عَلَى تَفْهَمِهَا مِنَ الدِّبَانَةِ إِذْ هِيَ أَرَادَةُ الْعِلْمِ ،
 وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ » ^(٢) .

* * *

(١) هو عبد الملك بن محمد « أبو منصور » من أئمة اللغة والأدب من أهل « نيسابور »
 من أرض « خراسان » ، كان فراء يخطط جلود الثعالب فنسب إلى صناعته ، واشتغل
 بالأدب والتاريخ ... وله كثير من المؤلفات ، توفي سنة ٤٢٩ هـ .

(٢) من مقدمة كتابه « فقه اللغة » .

قِيمَةُ اللُّغَةِ فِي حِفْظِ كِيَانِ الْأُمَمِ

إِنَّ أَرْضَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ كَانَتْ مَنِبْتَأً لِلْعَرَبِيَّةِ مُنْذُ
الْقَدَمِ ، وَمَوْئِلًا^(١) لِلْقُرْآنِ مُنْذُ هَلَّ الْقُرْآنُ بِنُورِهِ عَلَى
الْأَرْضِ ، وَسَتَبَقَى - بِإِذْنِ اللَّهِ - حِصْنًا مَنِيعًا لِذَلِكَ الْكِتَابِ
وَلُغَتِهِ ؛ تَحْمِيهَا مِنْ عُذْوَانِ الْعَادِينَ ، وَتَصُونُهَا مِنْ كَيْدِ
الْكَائِدِينَ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

وَبَعْدُ ... فَمَا أَهْمِيَّةُ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي بَذَلَ لَهَا أَسْلَافُنَا
مَا بَذَلُوا ، وَجَاهَدُوا مِنْ أَجْلِ حِفْظِهَا وَبَقَائِهَا مَا جَاهَدُوا ،
فَضَرَبُوا إِلَيْهَا أَكْبَادَ الْإِبِلِ لِيَتَنَاقَلُوهَا بِالرُّوَايَةِ ...

وَأَرَاقُوا عَلَى عَتَبَاتِهَا نُورَ عُيُونِهِمْ لِيَحْفَظُوهَا
بِالتَّدْوِينِ ... وَتَبَتَّلُوا لَهَا مَا تَبَتَّلُوا^(٢) لِيَجْمَعُوهَا فِي
الْمُعْجَمَاتِ الَّتِي تَحْفَظُ مُثُونَهَا ، وَيَحُوطُوهَا بِالْقَوَاعِدِ الَّتِي
تَضْبِطُ نِظَامَهَا ، وَيُثَبِّتُوهَا فِي آلاَفِ آلاَفِ الْكُتُبِ الَّتِي

(١) مَوْئِلًا : ملاذاً ومرجعاً .

(٢) تبتلوا : تفرغوا وأعطوا الشيء كل اهتمامهم .

تَضُمُّ شِعْرَهَا وَنَثَرَهَا ... ثُمَّ اسْتَقَلُّوا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ
هَذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ .

مَا قِيَمَةُ هَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي نَفَسَحُ لَهَا الْيَوْمَ مَجَالاً رَحِيباً
فِي مَدَارِسِنَا وَمَعَاهِدِنَا وَكُلِّيَّاتِنَا ، وَنُخَصِّصُ لَهَا وَقْتاً طَوِيلاً
فِي خُطَطِنَا وَمَنَاهِجِنَا ، وَنُعْطِيهَا نَصِيباً كَبِيراً مِنْ جُهْدِ
أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا ؟ ...

إِنَّهَا لُغَتُنَا الَّتِي حَفِظَتْ عَلَيْنَا شَخْصِيَّتَنَا عِبْرَ
التَّارِيخِ ... وَرَبَطَتْ شُعُوبَ أُمَّتِنَا بِرِبَاطِهَا الْوَثِيقِ ...

وَقَرَّبَتْ بَيْنَ أَمْزِجَةِ مُوَاطِنِنَا وَمَشَاعِرِهِمْ ، وَوَأَعَمَّتْ
بَيْنَ تَقَالِيدِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ .

وَهِيَ الْحِصْنُ الَّذِي لَازَ بِهِ الْعَرَبُ طَوَالَ خَمْسَةِ
عَشَرَ قَرْنًا ، فَصَانَ كِيَانَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَمَزَّقَ ، وَحَفِظَ شَمْلَهُمْ
مِنْ أَنْ يَتَفَرَّقَ ... وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ عَلَى دَفْعِ الْعُدْوَانِ كُلِّمَا
تَعَرَّضُوا لِلْعُدْوَانِ .

وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ لُغَةُ قُرْآنِنَا الْعَظِيمِ ، وَوِعَاءُ دِينِنَا

الْقَوِيمِ ، وَمُسْتَوْدَعُ حَضَارَتِنَا الزَّاهِرَةِ ، وَخِزَانَةُ تَرَاثِنَا
الرُّوحِيِّ وَالْعَقْلِيِّ .

* * *

وَلَيْسَتْ لُغَتُنَا أَتِيهَا السَّادَةُ بِدْعاً فِي حِفْظِ كِيَانِ
الْأُمَمِ ، وَجَمْعِ شَمْلِ الشُّعُوبِ ... وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ اللُّغَاتِ
جَمِيعاً . فَتَحْنُ إِذَا اسْتَعْرَضْنَا طَائِفَةَ الْأُمَمِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي
أُورُبَّا وَجَدْنَا أَثَرَ اللُّغَةِ فِي ظُهُورِهَا جَلِيًّا وَاضِحاً .

فَهَذِهِ « أَلْمَانِيَا » كَانَتْ إِلَى الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ
مُقَاطَعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً مُتَنَابِذَةً مُتَنَافِرَةً ، لِكُلِّ مُقَاطَعَةٍ أَمِيرٌ ،
وَلِكُلِّ أَمِيرٍ نِظَامٌ ، وَلِكُلِّ نِظَامٍ حُكُومَةٌ ...

وَوَظَلَّ الْأَمْرُ كَذَلِكَ حَتَّى شَعَرَ قَادَةُ الْفِكْرِ فِي
« أَلْمَانِيَا » بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَى جَمْعِ الْأَشْتَاتِ إِلَى الْأَشْتَاتِ ،
وَتَوْحِيدِ الْأَصْوَاتِ مَعَ الْأَصْوَاتِ ...

فَهَبَّ « هَرْدِر »^(١) فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ

(١) هَرْدِر Herder : (١٧٤٤ - ١٨٠٣ م) أديب ألماني له تأثير كبير على
نشأة حركة « العاصفة والاندفاع » الأدبية .

الثَّامِنَ عَشَرَ يُنَادِي : بِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي تُرْسَى
عَلَيْهِ دَعَائِمُ الْوَحْدَةِ ، وَالنَّوَاةُ الَّتِي تَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الشُّعُوبُ .
وَلَاقَتْ دَعْوَتُهُ هَذِهِ هَوًى مِنْ نُفُوسٍ أَدْبَاءِ الْحَرَكَةِ
الْإِبْدَاعِيَّةِ فِي « أَلْمَانِيَا » ، فَعَكَفُوا عَلَى تُرَاثِهِمْ الْقَدِيمِ أَيَّامَ
كَانَتْ أُمَّتُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...

وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّآثِرِ أَسْلَافِهِمْ مَادَّةً خِصْبَةً لِأَدَبِهِمْ ،
وَمِنْ بُطُولَاتِ قَادَتِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ مُثِيرَةً لِشُعْرِهِمْ ...
وَنَسَجُوا حَوْلَ ذَلِكَ قِصَصاً رَائِعَةً هَوَتْ إِلَيْهَا أَفئِدَةُ
الشَّبَابِ ، وَقَصَائِدَ بَارِعَةً مَلَكَتْ أَلْبَابَ الْفُتَيَانِ
وَالْفَتَيَاتِ ...

وَالْتَفَتُوا إِلَى طَبِيعَةِ بِلَادِهِمْ فَتَغَنَّوْا بِجَمَالِهَا السَّاحِرِ ،
وَأَبْرَزُوا فِشْنَهَا الْأَخْاذَةَ ، فَشَعَرَ الْأَبْنَاءُ بِمَفَاخِرِ الْأَبَاءِ ،
وَتَجَمَّعَتِ الْعَوَاطِفُ عَلَى حُبِّ الْوَطَنِ الْكَبِيرِ .

وَقَامَ فِي هَذِهِ الْمُقَاطَعَاتِ ، مُجْتَمَعُ « أَلْمَانِيَا »
مُوَحِّدُ الْمَشَاعِيرِ وَالْغَايَاتِ ، مُتَطَلِّعٌ إِلَى الْإِنْضِوَاءِ تَحْتَ

لِوَاءٍ وَاحِدٍ ، مِمَّا مَهَّدَ الطَّرِيقَ أَمَامَ « بِسْمَارِك » ^(١) لِتَعْبِقَةِ
الشُّعُورِ الْقَوْمِيِّ ، وَدَفَعَ الْأُمَّةَ « الْأَلْمَانِيَّةَ » نَحْوَ الْوَحْدَةِ
الْكُبْرَى الَّتِي تَمَّتْ عَلَى يَدَيْهِ .

* * *

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَثَلًا أَعْظَمَ مِنَ الْمَثَلِ السَّابِقِ فِي
الْإِبَانَةِ عَنْ أَثَرِ اللُّغَةِ فِي إِحْيَاءِ الْأُمَمِ ، وَحِفْظِهَا مِنَ التَّمَرُّقِ
وَالضَّيَاعِ ...

ذَلِكُمُ الْمَثَلُ ، هُوَ « إِيْرْلَنْدَا » الَّتِي رَزَحَتْ تَحْتَ
وَطْأَةِ الْاِخْتِلَالِ « الْإِنْكِلِيزِيِّ » مُنْذُ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ
الْمِيلَادِيِّ ، وَذَاقَتْ مِنْ وِثْلَاتِهِ مَا لَمْ يَذُقْهُ مُسْتَعْمَرٌ مِنْ
مُسْتَعْمِرٍ قَطُّ .

فَلَقَدْ أَعْمَلَ « كُروْمُوِيل » ^(٢) السَّيْفَ فِي رِقَابِ

(١) بسمارك Bismarck : « ١٨١٥ - ١٨٩٨ م » أصبح أول مستشار
« أورييس وزارة » للإمبراطورية الألمانية .

(٢) أوليفر كرومويل Oliver Cromowell : « ١٥٩٩ - ١٦٥٨ م »
زعيم سياسي وعسكري إنكليزي هزم الملكيين وأعلن الجمهورية سنة
« ١٦٥٣ م » .

«الإيرلنديين» ، وَجَمَعَ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ شَبَابِهِمْ وَبَاعَهُمْ
عَبِيداً فِي «أَمْرِيكا» ، وَنَفَى أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ رِجَالِهِمْ خَارِجَ
الْبِلَادِ ...

وَسَعَى هُوَ وَمَنْ تَلَاهُ فِي الْحُكْمِ لِمَحْوِ شَخْصِيَّةِ
«إِيرْلَنْدَا» بِالْقَضَاءِ عَلَى لُغَتِهَا حَتَّى تَمَّ لِلْإِنْكِيلِيزِ مَا أَرَادُوا
وَأَنْدَثَرَتِ اللُّغَةُ «الإِيرْلَنْدِيَّةُ» ، وَغَدَتْ شَيْئًا أَثَرِيًّا لَا يَعْرِفُهُ
إِلَّا حِفْنَةٌ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأُذْمِجَتْ «إِيرْلَنْدَا» فِي الْكِتَابِ
«الْبَرِيطَانِي» الْكَبِيرِ ، وَأَصْبَحَ لَهَا نُوَابٌ يُمَثِّلُونَهَا فِي
مَجْلِسِ الْعُمُومِ .

وَلَمَّا تَنَبَّهَ الشُّعُورُ الْوَطَنِيُّ لَدَى بَعْضِ رِجَالِهَا ،
وَحَاوَلُوا أَنْ يَنْعَثُوا أُمَّتَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا لَهَا
شَخْصِيَّتَهَا الْمُمَيَّزَةَ ، وَأَنْ يَفْصِلُوهَا عَنِ الشَّعْبِ
«الْبَرِيطَانِي» ، رَأَوْا أَنَّ مَنْطِقَ الْحَيَاةِ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ
ذَلِكَ ، مَا دَامَتْ لُغَتُهُمْ هِيَ اللُّغَةُ «الْإِنْكِيلِيزِيَّةُ» ...

وَمَا دَامَ شَعْبُهُمْ يَجْهَلُ لُغَتَهُ الَّتِي تُمَيِّزُ شَخْصِيَّتَهُ ،
وَتُبْرِزُ كِيَانَهُ ، وَتُحَقِّقُ وَحْدَتَهُ ...

وَأَسْعَفَهُمُ الْقَدَرُ بِمُعَلِّمٍ يُتَّقِنُ لُغَةَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛
دَفَعَهُ شُغُورُهُ بِوَاجِبِهِ إِلَى وَضْعِ الْكُتُبِ السَّهْلَةِ الَّتِي تُيسِّرُ
لِلْمُوَاطِنِيهِ تَعَلُّمَ اللُّغَةِ ، فَهَبُّوا يُسَاعِدُونَهُ عَلَى نَشْرِهَا ،
وَيُؤَاوِرُونَهُ فِي تَعْلِيمِهَا حَتَّى اسْتَعَادَتْ مَكَانَهَا مِنَ أَلْسِنَةِ
الْمُوَاطِنِينَ ، وَعَمَّتْ بَيْنَهُمْ وَشَاعَتْ ... وَكَانَتْ عَامِلًا قَوِيًّا
فِي إِحْيَاءِ أُمَّتِهِمْ وَاسْتِقْلَالِ بِلَادِهِمْ ، وَاسْتِعَادَةِ كِيَانِهِمْ .

وَلَمَّا تَمَّ لِإِيرْلَنْدَا ذَلِكَ ، قَدَّرَ الْمُوَاطِنُونَ لِلْمُعَلِّمِ
الْعَظِيمِ يَدَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَكْبَرُوا أَثَرَهُ فِي تَخْرِيرِ بِلَادِهِمْ ،
فَكَافَأُوهُ عَلَى صَنِيعِهِ بِأَنْ انْتَخَبُوهُ لِيَكُونَ أَوَّلَ رَئِيسِ
لِجُمْهُورِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » الْحُرَّةِ ، ذَلِكَ الْمُعَلِّمُ هُوَ الرَّئِيسُ
« دِيْغَالِيرَا » .

* * *

وَلَعَنَّا الْعَرَبِيَّةَ أَتَمَّهَا السَّادَةُ لَيْسَتْ قَوْمِيَّةً فَحَسَبُ ،
وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ دِينِيَّةٌ أَيْضًا .

فَهِىَ كَمَا تُجَمِّعُ الشُّعُوبَ الْعَرَبِيَّةَ حَوْلَهَا تُجَمِّعُ
حَوْلَ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ،

وَتَجْعَلُ مِنْهُمْ سِنْدًا قَوِيًّا لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَهِيرًا يَدْعُمُ
قَضَائِيهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ ...

وَعَرَفَ الْعَدُوُّ الْمُتَيَقِّظُ أَثَرَ هَذِهِ اللُّغَةِ فِي جَمْعِ
الشُّمْلِ الشَّتِيَّتِ ، وَلَمْ الشَّعْبِ الْمُتَفَرِّقِ ...

وَاسْتَيْقَنَ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى حِفْظِ كِيَانِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَدَفَعَهَا إِلَى النُّهُوضِ عَلَى قَدَمَيْهَا لِتَقِفَ فِي وَجْهِهِ وَوَجْهِ
مَطَامِعِهِ .

فَشَنَّ هُجُومَهُ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ .
وَالْعَدُوُّ الَّذِي يَمْلِكُ عُلَمَاءَ يُحْطَمُونَ الذَّرَّةَ ،
وَيَزْتَادُونَ الْفَضَاءَ ، وَيُسَخَّرُونَ قُوَى الْكَوْنِ ... يَمْلِكُ
طَائِفَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَسْتِعْمَارِ لَا يَقْلُونَ فِي قُدْرَاتِهِمْ عَنْ
عُلَمَاءِ الْكَوْنِ وَالذَّرَّةِ نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ لِرِسْمِ الْخُطَطِ الَّتِي
يَسْتَذِلُّونَ بِهَا الشُّعُوبَ ، وَيَسْتَعْبِدُونَ بِوَاسِطَتِهَا الْأُمَمَ .

* * *

الْعُدْوَانُ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ

لَقَدْ عَرَفَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ - كَمَا أَشْرْنَا مِنْ قَبْلُ - أَثَرَ
هَذِهِ اللُّغَةِ فِي بِنَاءِ حَيَاةِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَقِيَمَتَهَا فِي
حِفْظِ الْإِسْلَامِ وَفَهْمِ الْقُرْآنِ ... فَجَنَّدُوا لِحَرْبِهَا طَائِفَةً
كَبِيرَةً مِنْ دَهَاقِينِهِمْ ...

وَأَنْدَفَعَ وَرَاءَهُ هَؤُلَاءِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا عَنْ عِلْمٍ أَوْ عَنْ
غَيْرِ عِلْمٍ يُؤَيِّدُونَهُمْ فِي دَعْوَتِهِمْ ، وَيُظَاهِرُونَهُمْ ^(١) فِي
حَرْبِهِمْ ، وَيَدْعُونَ لِلْأَخْذِ بِخُطَطِهِمْ وَمَشْرُوعَاتِهِمْ .

وَقَدْ رَأَى هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ أَنَّ السَّيْطَرَةَ عَلَى الْأَقْوَامِ
لَا تَكُونُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِالسَّيْطَرَةِ
عَلَى الْعُقُولِ ...

وَأَنَّ السَّبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِضْعَافِ لُغَةِ الْأُمَّةِ
وَمَحْوِهَا حَتَّى تَبْعُدَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَمَاضِيهَا ، وَتَتَقَطَّعَ
الْأَسْبَابُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تَرَاثِمِهَا ...

(١) يظاهرونهم : يعاونونهم ، ويساعدونهم على إظهار أمرهم .

فَتَعْدُو كِإِنْسَانٍ فَقَدْ ذَاكَرْتَهُ وَأَصْبَحَ لَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةِ
مَاضِيهِ مَا يُعِينُهُ عَلَى دَعْمِ حَاضِرِهِ ، وَلَا يَجِدُ فِي ثَرَاثِ أَمْسِهِ
مَا يَسُدُّ بِهِ حَاجَةَ يَوْمِهِ ... وَبِذَلِكَ يَسْتَكِينُ لِسُلْطَانِهَا ،
وَيَخْضَعُ لِطُغْيَانِهَا بَعْدَ أَنْ بَاتَ شَعْبًا لَا مَاضِي لَهُ .

وَابْتَدَأَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ بِأَنْ فَرَضَ « الْفَرَنْسِيُّونَ » عَلَى
أَبْنَاءِ « الْجَزَائِرِ » الْمُسْلِمَةِ لُغَتَهُمُ الْفَرَنْسِيَّةَ ، وَحَرَّمُوا
تَدْرِيسَ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ ...

وَحَارَبُوا الْقُرْآنَ عَلَى أَنَّهُ كِتَابُ الْعَرَبِيَّةِ الْأَكْبَرِ ،
وَحَارَسُهَا الْأَمِينُ وَرَكْنُهَا الرَّكِينُ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِهَذِهِ اللُّغَةِ
وَقُرْآنِهَا مِنْ مَلْجَأٍ إِلَّا الْكَتَاتِيْبُ وَبَعْضُ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ
الْفَقِيرَةِ ... وَلَوْلَا أَنْ تَدَارَكَتْهَا « جَمْعِيَّةُ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ
بِالْجَزَائِرِ » ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْعَالِمُ الْمُجَاهِدُ الْمُصْلِحُ الشَّيْخُ
« عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ بَادِيْسٍ » ^(١) ، وَهَبَّتْ تُنْشِئُ الْمَكَاتِبَ

(١) عبد الحميد بن محمد بن باديس : رئيس جمعية العلماء من بداية قيامها
سنة ١٩٣١م إلى وفاته ، وُلِدَ فِي « قسنطينة » وَأَتَمَّ دِرَاسَتَهُ فِي جَامِعَةِ
الزيتونة بتونس ، أَصْدَرَ مَجْلَةَ « الشَّهَاب » وَلَهُ « تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ » تُوفِيَ
سنة ١٩٤٠م .

لِتَحْفِظِ الْقُرْآنَ ، وَالْمَدَارِسَ لِتُعَلِّمَ الدِّينَ وَاللُّغَةَ ، لِأَصَابَ مِنْهَا الْعَدُوَّ مَقْتَلًا .

* * *

وَفَرَضَ «الْإِنْكِيلِيزُ» لُغَتَهُمْ عَلَى «مِصْرَ» أَيْضًا ، وَجَعَلُوهَا لُغَةَ التَّعْلِيمِ مِنْذُ السَّنَةِ الْأُولَى فِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ إِلَى نِهَآيَةِ التَّعْلِيمِ الْعَالِي ؛ تُدْرَسُ بِهَا الْمَوَادُّ كُلُّهَا ، وَتُؤَدَّى بِهَا الْأَمْتِحَانَاتُ جَمِيعُهَا ، وَقَدْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى اسْتِقْدَامِهِمْ مُعَلِّمِينَ «إِنْكِيلِيزَ» يَعْمَلُونَ عَلَى صَهْرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُوتَقَةِ الَّتِي أَعَدُّوهَا لَهُمْ ، وَيَفْتَتُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ وَمُثْلِهِمْ ، وَيُرْغَبُونَهُمْ بِحَضَارَةِ «إِنْكِيلِيزَا» وَتُرَاثِهَا ، وَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ أَبْطَالَهَا وَمَفَاخِرَهَا .

وَقَدْ بَلَغَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي «مِصْرَ» حِينَ ذَاكَ مَبْلَغًا مِنْ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ جَعَلَ وَزِيرَ الْمَعَارِفِ آنَذَاكَ يَقِفُ فِي وَجْهِ النُّوَابِ الَّذِينَ طَالَبُوا بِإِخْلَالِ الْعَرَبِيَّةِ مَحَلًّا «الْإِنْكِيلِيزِيَّةَ» فِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَيَصِمُّهُمْ بِالتَّهْوِيرِ ، وَيَصِفُّهُمْ بِالْأَنْسِيَاقِ مَعَ الْعَوَاطِفِ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ اسْتِحَالَةَ

الْأَخَذِ بِمُقْتَرَحِهِمْ لِعَجْزِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِالتَّعْلِيمِ ،
وَقِلَّةِ الْمُعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَدْرِيسَ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ
بِالْعَرَبِيَّةِ .

وَلَكِنَّ الْوَزِيرَ أَخْفَقَ فِي إِقْنَاعِ الثُّوَابِ بِوَجْهَةِ نَظَرِهِ ،
وَأَقْرَبَ الْجَمْعِيَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ ، وَجُوبَ تَعْلِيمِ الْمَوَادِّ
الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ بَدَلًا مِنْ
« الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، الَّتِي ظَلَّتْ تُعَلَّمُ بِهَا أَكْثَرُ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ .

* * *

وَقَدْ عَمِلَ الْإِنْكِلِيزُ فِي « الشُّوَدَانِ » ، عَلَى إِبْعَادِ
الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مِيَادِينِ التَّعْلِيمِ ، وَعَزَلِهَا عَنْ أَلْسِنَةِ الطَّبَقَةِ
الْمُثَقَّفَةِ وَالْمُعَدَّةِ لِتَوَلِّي الْقِيَادَةَ فِي مُخْتَلَفِ الْمِيَادِينِ .

فَأَنْشَأُوا كُليَّةَ « غُورْدُنْ » الْإِنْكِلِيزِيَّةَ ، وَحَصَرُوا
التَّعْلِيمَ الْعَالِيَّ فِيهَا أَوْ كَادُوا ، لِيَحْمِلُوا الْمَوَاطِنِينَ عَلَى تَعْلَمِ
اللُّغَةِ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » فِي الْمَرْحَلَتَيْنِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ ،
إِذَا أَرَادُوا مُتَابَعَةَ تَعْلِيمِهِمُ الْجَامِعِيِّ ...

وَلَوْلَا الْمَعْهَدُ الدِّينِيُّ فِي « أُمِّ دُرْمَانَ » ...

وَلَوْلَا الْمَعَاهِدُ الْمِصْرِيَّةُ الَّتِي فَتَحَتْ صَدْرَهَا رَحِيباً
لِلْإِخْوَةِ الْأَشْقَاءِ لَكَانَ لِلشُّودَانِ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ، يُفْرِحُ
الْعَدُوُّ، وَيُتْرَحُ الصَّدِيقُ.

وَلَوْ أَنَّ « فَرَنْسَا » اسْتَقَرَّتْ فِي « سُورِيَّةَ » وَلَمْ تَنْشَغِلْ
مَعَهَا بِتِلْكَ الثُّورَاتِ الَّتِي أَقْصَتْ مَضَاجِعَهَا، لَكَانَ مِنَ
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَوْقِفٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ.

وَلَعَلَّ مِمَّا يُلْقَى الْأَضْوَاءَ عَلَى هَذَا الْمُخَطِّطِ
الْعُدْوَانِي، أَنَّ نَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ كَانُوا يُحَارِبُونَ
الْعَرَبِيَّةَ بِكُلِّ سِلَاحٍ، وَيُكِيلُونَ لَهَا التُّهَمَ جُزَافاً، كَانُوا فِي
الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُشَجِّعُونَ تَعْلِيمَ اللُّغَةِ « الْكُرْدِيَّةِ » فِي مَدَارِسِ
« الْعِرَاقِ » ...

وَيُحْيُونَ اللُّغَةَ « الْبَرْبَرِيَّةَ » فِي أَرْضِ « الْجَزَائِرِ »،
وَيَنْشِطُ عُلَمَاؤُهُمْ فِي وَضْعِ قَوَاعِدَ لَهَا، وَتَأْلِيفِ كُتُبٍ
فِيهَا، وَتَفْسِيرِ تَعْلِيمِهَا لِلنَّاسِ.

* * *

وَلَيْسَتْ هَذِهِ أَهْيَا السَّادَةِ هِيَ كُلُّ الْحَرْبِ الَّتِي شَنَّهَا

الْأَعْدَاءُ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقُرَّانِهَا ... وَإِنَّمَا هِيَ بَعْضُ هَذِهِ
الْحَرْبِ .

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ أَكْبَرُ مَعْوَلٍ اسْتُعْمِلَ فِي هَدْمِ صَرْحِ
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ... وَإِنَّمَا هُوَ أَصْغَرُهَا شَأْنًا وَأَقْلَبُهَا خَطَرًا .

فَلَقَدْ قَادَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ ضِدَّ هَذِهِ اللُّغَةِ حَمْلَةً ،
سِلَاحُهَا الْبَاطِلُ ، وَعُدَّتُهَا الْإِفْتِرَاءُ ، وَذَخِيرَتُهَا التَّشْكِيكُ .

وَكَانَتْ الْفِرْيَةُ الَّتِي افْتَرَاهَا شَيَاطِينُهُمْ عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ
أَنَّهَا عَقِيمٌ لَا تَلِدُ ، عَجُوزٌ لَا تَقْوَى ، بَلِيدَةٌ لَا تَتَطَوَّرُ ، صَعْبَةٌ
لَا تَرْقَى إِلَيْهَا الْأَفْهَامُ وَلَا تُدْرِكُهَا الْأَوْهَامُ^(١) .

وَزَلُّوا يَزْفَعُونَ هَذِهِ الشُّعَارَاتِ وَيُنَادُونَ بِهَا ، حَتَّى
غَدَتْ فِي نَظَرِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ الْعَرَبِ حَقَائِقَ لَا يَرْقَى
إِلَيْهَا الشُّكُّ ، وَمُشْكِلَاتٍ تَحْتَاجُ إِلَى حُلُولٍ عَاجِلَةٍ .

* * *

(١) الأوهام : ما يقع في الذهن من خواطر وأنكار .

أ - إِحْلَالُ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُضْحَى

نَشِطَتِ الْأَيْدِي الْأَيْمَةُ ، تَعْمَلُ عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ
تَارَةً فِي السِّرِّ ، وَأُخْرَى فِي الْعَلَنِ .

وَهَبَّتِ النِّيَّاتُ الْمَشْبُوهَةُ تَكِيدُ لَهَا تَحْتَ سِتَارِ
التَّجْدِيدِ وَالْإِصْلَاحِ ...

وَكَانَتْ أُولَى هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الدَّعْوَةُ إِلَى نَبْذِ
الْفُضْحَى ، وَإِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةً الْكِتَابِ
كَمَا هِيَ لُغَةُ الْخِطَابِ .

وَبَدَأَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ سَنَةً وَاحِدَةً وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةً
وَأَلْفٍ حِينَ خَضَّتْ مَجَلَّةُ « الْمُقْتَطَفُ » ^(١) عَلَى جَعْلِ لُغَةِ
الْخِطَابِ لُغَةً لِلْكِتَابِ ، وَدَعَتْ رِجَالَ الْأَدَبِ وَالْفِكْرِ إِلَى
بَحْثِ ذَلِكَ الْاِقْتِرَاحِ وَمُنَاقَشَتِهِ .

(١) مجلة المقتطف : إحدى المجلات العربية ، أسسها في بيروت يعقوب
صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٦م ، ثم نقلها إلى القاهرة ، توقفت عن
الصدور سنة ١٩٥٢م .

ثُمَّ أُثِيرَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَرَّةً أُخْرَى فِي مَطْلَعِ سَنَةِ
اِثْنَيْنِ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفِ حِينَ أَلْفَ « وَيَلْمُورُ » - أَحَدُ الْقُضَاةِ
الْإِنْكِلِيزِيِّ فِي الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ فِي « مِصْرَ » - كِتَاباً دَعَاهُ
« لُغَةُ الْقَاهِرَةِ » حَضَّ فِيهِ عَلَى إِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ
الْفُضْحَى ، وَنَادَى بِجَعْلِهَا لُغَةَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَوَضَعَ لَهَا
قَوَاعِدَ وَضَوَابِطَ ...

فَاسْتَقْبَلَتْ « الْمُقْتَطَفُ » الْكِتَابَ بِالشَّيْنِ وَالتَّقْرِيطِ ،
وَقَدَّمَتْهُ إِلَى جَمَاهِيرِ الْقُرَّاءِ ، وَأَشَادَتْ بِهِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ .

وَتَلَا هَذَا الْقَاضِي الْإِنْكِلِيزِيُّ الْإِنْكِلِيزِيُّ آخَرُهُ هُوَ السَّيِّدُ
« وَلِيَمْ وَلُكُوَكْس » - أَحَدُ مُهَنْدِسِي الرِّيِّ فِي « مِصْرَ » -
فَدَعَا إِلَى هَجْرِ الْفُضْحَى وَإِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَوَضَعَ
دَعْوَتَهُ هَذِهِ مَوْضِعَ التَّنْفِيدِ ؛ فَتَرْجَمَ شَطْرًا كَبِيرًا مِنْ
الْإِنْجِيلِ إِلَى اللَّهْجَةِ الْعَامِّيَّةِ ... كَمَا تَرْجَمَ إِلَيْهَا فُضُولًا مِنْ
مَسْرُحِيَّاتِ « شِكْسْبِير » .

ثُمَّ تَلَا هَذَيْنِ الْإِنْكِلِيزِيِّينِ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ ، هُوَ :

« سَلَامَةُ مُوسَى » فَنَادَى بِمَا نَادَى بِهِ ، ثُمَّ ارْدَادَ الدَّعَاةُ يَوْمًا
بَعْدَ يَوْمٍ .

* * *

وَلَا أَظُنُّنِي بِحَاجَةٍ لِأَنَّ أُنُوءَ بِمَقَاصِدِ « وَلِئِمَّ ،
فَهِىَ غَيْرُ خَافِيَةٍ عَلَى أَحَدٍ ...

وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَ « سَلَامَةُ مُوسَى » إِلَى قُرَائِنَا
الْكَرَامِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ فِي مَعْرِفَتِهِ مَا يُلْقِي ضَوْءًا عَلَى
الْمَقَاصِدِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، فَسَلَامَةُ
مُوسَى يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ « الْيَوْمُ وَالْغَدُ » :

« كُلَّمَا ارْدَدْتُ خِبرَةً وَتَجَرِبَةً وَثِقَافَةً تَوَضَّحَتْ
أَمَامِي أَغْرَاضِي فِي الْأَدَبِ ، فَهِىَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ
عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ « آسِيَا » ، وَأَنْ نَلْتَحِقَ بِأُورُبَّا ...

فَإِنِّي كُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِالشَّرْقِ ، زَادَتْ كَرَاهِيَّتِي
لَهُ ، وَشُعُورِي بِأَنَّهُ غَرِيبٌ عَنِّي ...

وَكُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِأُورُبَّا زَادَ حُبِّي لَهَا وَتَعَلُّقِي
بِهَا ، وَزَادَ شُعُورِي بِأَنَّهَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهَا ...

هَذَا هُوَ مَذْهَبِي الَّذِي أَعْمَلُ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِي سِرًّا
وَجَهْرًا ، فَأَنَا كَافِرٌ بِالشَّرْقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَرْبِ .

* * *

وَكَانَتْ مُحَجَّجُ الدُّعَاةِ إِلَى الْأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ وَإِحْلَالِهَا
مَحَلَّ الْفُضْحَى تَدُورُ حَوْلَ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ :

أَوَّلًا : ذَلِكَ التَّبَايُنُ ^(١) الْكَبِيرُ بَيْنَ لُغَةِ الْكِتَابِ وَلُغَةِ
الْخِطَابِ ، مِمَّا يَجْعَلُ الْعِلْمَ وَقْفًا عَلَى طَائِفَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ
النَّاسِ .

ثَانِيًا : قُصُورُ الْفُضْحَى عَنِ الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِ
الْحَضَارَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ النَّامِيَةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

ثَالِثًا : صُعُوبَةُ الْفُضْحَى ، وَتَعَذُّرُ إِتْقَانِهَا عَلَى الرَّغْمِ
مِنَ الْجُهُودِ السَّخِيَّةِ الَّتِي تُبَذَلُ فِي هَذَا السَّبِيلِ .

رَابِعًا : جُمُودُ الْفُضْحَى ، وَعَدَمُ اسْتِعْدَادِهَا لِلتَّطَوُّرِ .

فَلْنُتَاقِشْ هَذِهِ الْحُجَجَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً لِلْكَشْفِ عَنْ

(١) التباين : التباين والاختلاف .

زَيْفَهَا ، وَدَخَضِ مَا ادَّعَاهُ الْمُدَّعُونَ مِنْ قُدْرَةِ الْعَامِّيَّةِ عَلَى
حَلِّ مُشْكَلَاتِنَا اللُّغَوِيَّةِ (١) ...

وَلْنَبْدَأُ بِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنْ جَعَلَ الْعَامِّيَّةُ لُغَةً لِلْكِتَابِ
يُصَيِّرُ الْعِلْمَ مُشَاعاً بَيْنَ الْمُواطِنِينَ الْعَرَبِ ، وَيَقْضِي عَلَى
طَبَقِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ ...

وَلْنَسْأَلُهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الَّتِي يُرِيدُونَ أَنْ نَأْخُذَ بِهَا ،
أَفَنَأْخُذُ عَامِّيَّةَ « الْعِرَاقِ » الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا « الْعِرَاقِيُّونَ »
وَحَدَهُمْ ...

أَمْ نَسْتَغْمِلُ عَامِّيَّةَ « الْجَزَائِرِ » الَّتِي تُسْتَغْلَقُ (٢) عَلَى
أَبْنَاءِ الْعُرُوبَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

أَمْ نُؤْثِرُ (٣) عَامِّيَّةَ « الْيَمَنِ » أَوْ « مِصْرَ » أَوْ « الشَّامَ »
أَوْ « الشُّوْدَانَ » ؟!

وَهَبْ أَتُنَا أَخَذْنَا عَامِّيَّةَ « مِصْرَ » مَثَلًا أَفَنَخْتَارُ عَامِّيَّةَ

(١) سنبسط القول في ثالثاً ورابعاً عند الكلام على تفرد لغتنا وتميزها .

(٢) تستغلق : يعسر فهمها .

(٣) نُؤْثِرُ : نختار ونفضل .

« الْقَاهِرَةُ » أَمْ عَامِّيَّةٌ « الصَّعِيدِ » ؟ ... وَيَبْتَهُمَا مِنَ الْفَرْقِ
مَا هُوَ أَشَدُّ بُعْدًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْفُضْحَى وَالْعَامِّيَّةِ ...

وَإِذَا كَانَتِ الْفُضْحَى تَعَزِّلُ بَعْضَ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
عَنْ لُغَةِ الْكِتَابِ ، فَإِنَّ الْأَخْذَ بِأَيَّةِ عَامِّيَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْعَامِّيَّاتِ
يَعَزِّلُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الْمُضْطَنَّةِ ،
وَيَحْرِمُهُمْ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِشَمَرَاتِ قَرَائِحِ ^(١) مُوَاطِنِهِمْ فِي
عَالَمِهِمُ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ ...

وَإِذَا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ هُوَ تَنْشِيطُ الْعِلْمِ
وَتَيْسِيرُهُ لِلنَّاسِ ... فَهَلْ يَتَّفِقُ ذَلِكَ مَعَ مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الدَّعْوَةُ
مِنْ وَادٍ ^(٢) آَلَا فِ الْآلَافِ الْكُتُبِ الَّتِي دُوِّنَتْ بِالْفُضْحَى
خِلَالَ تَارِيخِنَا الْحَضَارِيِّ التَّلِيدِ ^(٣) ، وَقَتْلِهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ
جَنَّتْ ... وَقَطَعَ صِلَةَ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ ، وَحَرَّمَانِ الْأَوَاخِرِ مِنَ
الْبِنَاءِ عَلَى أَسَاسِ الْأَوَائِلِ ...

(١) القرائح : جمع مفردة قريحة ، وهي ملكة الإبداع في الكلام وإبداء الرأي .

(٢) الواد : هو القتل بدفن الحي تحت التراب .

(٣) التلید : القديم العريق .

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تُؤْمِنُ أَنَّ الْعِلْمَ تُرَاثُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْخَالِدُ
يُتِمُّ فِيهِ اللَّاحِقُ مَا بَدَأَهُ السَّابِقُ .

* * *

ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لِهَؤُلَاءِ هَذِهِ الدَّعْوَى بِقُصُورِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
عَنِ الْوَفَاءِ بِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ ، وَعَجْزِهَا عَنِ التُّهُّوِضِ بِأَغْبَاءِ
الْحَضَارَةِ ، وَتَفُوقِ الْعَامِّيَّةِ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ !!؟ ...

مِنْ أَيْنَ لَهُمْ ذَلِكَ !!؟ ... وَهِيَ اللُّغَةُ الَّتِي امْتَدَّتْ
طَاقَاتُهَا حَتَّى وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظاً وَغَايَةً ...

وَعَزُرَتْ (١) مُفْرَدَاتُهَا حَتَّى عَبَّرَتْ عَنْ أَدَقِّ دَقَائِقِ
الْحَيَاةِ ...

وَرَحَّبَتْ (٢) أَسَالِيْبُهَا حَتَّى أَفْصَحَتْ عَنْ أَنْبَلِ
الْمَشَاعِيرِ ، وَأَسَمَى الْخِلَالَ .

ثُمَّ لَمَّا أَفَاءَ (٣) اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ ،
وَحَمَلَهَا عَلَى جَنَاحِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ

(١) غزرت : كثرت وفاضت . (٣) أفاء الله : من الله بنعمه .

(٢) رحبت : اتسعت .

وَمَغَارِبَهَا اسْتَطَاعَتِ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَنْشُرَ ظِلَّهَا الْوَارِفَ عَلَى
كَثِيرٍ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَفْتِنَهُمْ عَنْ
لُغَاتِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ...

فَلَمْ يَمُضِ قَرْنَانِ مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى أَصْبَحَتِ اللُّغَةُ
الْعَرَبِيَّةُ لُغَةً سُكَّانِ الرُّقْعَةِ الْفَسِيحَةِ الْمُمتَدَّةِ بَيْنَ الْمَحِيطِ
وَالْخَلِيجِ ، وَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَى بِلَادِ « الْأَنْدَلُسِ » ...

وَحَتَّى هَبَّ أَبْنَاءُ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الْمُسْلِمَةِ مِنْ غَيْرِ
الْعَرَبِ يُؤَلِّفُونَ الْكُتُبَ وَيَضَعُونَ الْقَوَاعِدَ لِحِمَايَةِ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لُغَاتِهِمْ ، وَلِصَيَانَةِ فَضَحَاهَا مِنْ عُجْمَةِ
الْسِّنَتِيهِمْ .

وَمَا إِنْ أَطَلَّ الْعَصْرُ الذَّهَبِيُّ لِبَنِي « الْعَبَّاسِ » عَلَى
الْكُونِ وَعَمَدَ الْخُلَفَاءِ الْعِظَامُ مِنْ بَنِي « الْعَبَّاسِ » إِلَى
تَرْجَمَةِ الْعُلُومِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى اسْتَجَابَتْ
لَهُمْ لُغَةُ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ الإِسْتِجَابَةِ ...

فَاتَّسَعَتْ لِفَلَسَفَةِ « الْيُونَانِ » ، وَحِكْمَةِ « الْهِنْدِ » ،
وَأَدَبِ « الْفُرْسِ » ...

وَوَعَتْ أَعْظَمَ مَا حَفَلَ بِهِ الثَّرَاثُ الْإِنْسَانِي مِنْ
طَبِّ ، وَكِيمِيَاءٍ وَمَا إِلَيْهِمَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَعَارِفِ .
وَبَعْدُ ، فَتِلْكَ خُلَاصَةٌ مُوجِزَةٌ لِلْكَشْفِ عَنْ زَيْفِ
حُجَجِ الدُّعَاةِ إِلَى الْأَخْذِ بِالْعَامِيَّةِ وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ
الْفُضْحَى ، أَمَّا الْحُجَجُ بِضَعُوبَةِ الْفُضْحَى وَجُمُودِهَا
فَسَتَكَلِّمُ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ كَمَا أَشْرْنَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

ب - إِحْلَالُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ

ثُمَّ تَلَّتِ الدَّعْوَةَ إِلَى اضْطِنَاعِ الْعَامِّيَّةِ دَعْوَةً أُخْرَى لَا تَقِلُّ عَنْهَا خَطَرًا أَلَا وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى نَبْذِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِحْلَالِ الْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ مَحَلَّهَا ... وَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُبَشِّرِينَ بِهَا ، الْقَاضِي الْإِنْكِلِيزِيُّ « وِيلْمُورْ » نَفْسُهُ .

ثُمَّ تَلَّاهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ هُوَ : الْأُسْتَاذُ « عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي » ؛ فَحَبَّرَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْمَقَالَاتِ وَالرَّسَائِلِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَشْرُوعِ كَامِلٍ لِإِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

ثُمَّ تَلَّا « عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي » طَائِفَةً مِنَ الدُّعَاةِ كَانُوا آخِرَهُمْ « سَعِيدُ عَقْلٍ » حَيْثُ وَضَعَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مَوْضِعَ التَّنْفِيدِ ؛ فَأُصْدِرَ كِتَابُهُ « يَارَا » وَهُوَ دِيْوَانُ شِعْرِ نَظْمُهُ

بِالْعَامِّيَّةِ ، وَطَبَعَهُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ فِي مَطْبَعَةِ « أَنْطُوان »
فِي « يَنْزُوت » .

وَكَانَتْ حُجَّةُ الدَّاعِينَ إِلَى الْأَخْذِ بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ هِيَ
أَنَّ رَسْمَ الْكَلِمَاتِ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ لَا تَتَيَسَّرُ مَعَهُ قِرَاءَةُ
النُّصُوصِ قِرَاءَةً مُشْتَرِيسَةً مَضْبُوتَةً ...

وَأَنَّ الشَّكْلَ الَّذِي اسْتَعَاظَتْ بِهِ الْعَرَبِيَّةُ عَنْ حُرُوفِ
الْحَرَكَاتِ ، قَدْ أُثْبِتَ الْإِسْتِعْمَالُ عَدَمَ غِنَائِهِ ، لِأَنَّ الشُّكْلَةَ
الْمُنْفَصِلَةَ عَنِ الْحَرْفِ كَثِيراً مَا تَقَعُ عَلَى حَرْفٍ قَبْلَهُ ،
أَوْ حَرْفٍ بَعْدَهُ لِعَدَمِ ضَبْطِ يَدِ الْكَاتِبِ ، أَوْ النَّاسِخِ ،
أَوْ الطَّابِعِ ...

وَأَنَّ الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ إِذَا اسْتَعْنَى عَنِ الشَّكْلِ عَرَّضَ
الْقَارِئَ لِقِرَاءَةِ الْكَلِمَةِ عَلَى جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا
الْحُرُوفُ ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ - فِي نَظَرِهِمْ - عَلَى أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ
يَأْخُذُوا بِطَرِيقَةِ تَيْسُرِ لَهُمْ كِتَابَةُ لُغَتِهِمْ عَلَى وَجْهِ لَا تَحْتَمِلُ
فِيهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا صُورَةً وَاحِدَةً مِنْ صُورِ الْأَدَاءِ ، وَوَجَدُوا أَنَّهُ

لَا يَتِمُّ لَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا اسْتَبَدَّلُوا بِحُرُوفِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الْحُرُوفَ
اللاتينية .

* * *

وَدُعَاةُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ يَنْسُونُ أَوْ يَتَنَاسُونَ مَا يَحْفُ
بِدَعْوَتِهِمْ هَذِهِ مِنْ مَخَاطِرَ ، وَمَا يَحُولُ دُونَ تَحْقِيقِهَا مِنْ
عَقَبَاتٍ ... وَيَغْفُلُونَ أَوْ يَتَغَافِلُونَ عَنْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ
الْمُخَطَّطِ الرَّهيبِ الَّذِي يَهْدَفُ إِلَى مُحَارَبَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ ،
وَتَفْرِيقِ الْمُجْتَمِعِينَ عَلَيْهَا ، وَقَطْعِهِمْ عَنْ تَرَاثِهِمُ الْعَرِيقِ .

وَنَحْنُ حِينَ نَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ نَظْرَةً مَوْضُوعِيَّةً
يَسْتَبِينُ لَنَا فَسَادُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ... فَفِي الْعَرَبِيَّةِ تِسْعَةُ
أَصْوَاتٍ مُمَثَّلَةٍ فِي تِسْعَةِ حُرُوفٍ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْحُرُوفِ
اللاتينية وَهِيَ : الهَاءُ ، وَالْحَاءُ ، وَالخَاءُ ، وَالصَّادُ ،
وَالضَّادُ ، وَالطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالْعَيْنُ ، وَالْغَيْنُ .

وَقَدْ وَقَفَ أَصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ حَيَارَى أَمَامَ هَذِهِ
الظَّاهِرَةِ ، وَافْتَرَقَتْ كَلِمَتُهُمْ فِي إِيجَادِ الْحُلُولِ لَهَا .
فَرَأَى « عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي » أَنَّهُ لَا مَفْرَ لَه مِنْ أَخْذِ هَذِهِ

الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ بِأَشْكَالِهَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَضَمُّهَا إِلَى الْأُبْجَدِيَّةِ
اللَّاتِينِيَّةِ الْمُقْتَرَحَةِ ؛ بِحَيْثُ يَجْتَمِعُ فِيهَا خَلِيطٌ عَجِيبٌ مِنْ
الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالشَّكْلِ .

أَمَّا « سَعِيدُ عَقْلٍ » فَرَكِبَ لِتَحْقِيقِ دَعْوَتِهِ مَرْكَبًا
أَخْشَنَ حَيْثُ كَوَّنَ الْأُبْجَدِيَّةَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا فِي كِتَابِهِ
« يَارَا » مِنَ الْأَحْرَفِ اللَّاتِينِيَّةِ السُّتَّةِ وَالْعِشْرِينَ ، ثُمَّ أَضَافَ
إِلَيْهَا سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ
ضَمَّ إِلَيْهَا أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا لَاتِينِيًّا بَعْدَ أَنْ زَادَ عَلَيْهَا طَائِفَةً
مِنَ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ لِتُوْدِّيَ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ ...

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ عَدَدُ حُرُوفِ الْأُبْجَدِيَّةِ الْمُخْتَرَعَةِ
أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا ، وَمَعَ هَذَا فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّي عَجَزْتُ عَنْ
قِرَاءَةِ سَطْرِ وَاحِدٍ مِنْ « يَارَا » بِسَبَبِ اسْتِعْمَالِ الْعَامِّيَّةِ مِنْ
جِهَةٍ ، وَبِسَبَبِ الْحُرُوفِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُخْتَرَعَةِ مِنْ جِهَةٍ
أُخْرَى .

* * *

وَأَمْرٌ ثَانٍ يَقِفُ فِي وَجْهِ هَذَا الْإِقْتِرَاحِ وَيَقْضِي عَلَى

عِلَّةٌ وَجُودِهِ ، وَهُوَ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تُغَايِرُ^(١) اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةَ
الَّتِي تُكْتَبُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لُغَةٌ مُعْرَبَةٌ ...
تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنْ
الْجُمْلَةِ ...

وَمِنْ هُنَا كَانَتْ الدَّلَالَةُ عَلَى الْحَرَكَاتِ بِالْحُرُوفِ
وِاثْبَاتِهَا فِي صُلْبِ الْكَلِمَةِ تُعَرِّضُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ
قَوَاعِدَ النَّحْوِ لِلْوُقُوعِ فِي فَيْضٍ مِنَ الْخَطَأِ ، وَبِذَلِكَ
لَا يَسْتَطِيعُ السَّوَادُ مِنْ شُعْبِنَا ، وَالصَّغَارُ مِنْ تَلَامِيذِنَا أَنْ
يَكْتُبُوا كَلِمَةً صَحِيحَةً إِلَّا إِذَا أَدْرَكُوا أَحْكَامَ الْفَاعِلِ
وَالْمَفْعُولِ ، وَالْحَالِ وَالتَّمْيِيزِ ، وَمَبَاحِثَ الْعَدَدِ ،
وَالْمَمْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ ، وَوَقَفُوا عَلَى ضَبْطِ عَيْنِ
الْفِعْلِ^(٢) ، وَأَحْكَمُوا نُطْقَ الْأَسْمَاءِ ، وَبِذَلِكَ تَسْوَدُ
الْعَامِيَّةُ عَامَّةً شُعْبِنَا ، وَيُحَالُ دُونَهُمْ وَدُونَ تَعْلُمِ الْكِتَابَةِ .

* * *

(١) التغاير: هو الاختلاف ، هذا غير ذاك .

(٢) عين الفعل : يزن اللغويون الفعل الثلاثي بحروف ثلاثة هي « ف . ع . ل »
وعين الفعل هو الحرف الأوسط الذي يقابل حرف العين في الميزان ، يقال
« شَرِبَ » على وزن « فَعِلَ » ، فعينه هي حرف « الراء » .

ج - الضربات الخفية

لَمَّا أَخْفَقَتْ دَعْوَتَا الْعَامِّيَّةِ وَالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ
الْهَادِفَتَانِ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَيَيْسُ الْخُصُومُ مِنْ
بُلُوغِ مَقَاصِدِهِمْ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ عَكَفُوا عَلَى خُطَطِهِمْ
يُرَاجِعُونَهَا ...

وَعَادُوا إِلَى مَشْرُوعَاتِهِمْ يُعَدِّلُونَهَا .

فَوَجَدُوا أَنَّ الضَّرْبَةَ الْكُبْرَى قَدْ قُوبِلَتْ بِدِفَاعٍ أَكْبَرَ ،
فَرَجَّحُوا أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ بِضُرَبَاتٍ صَغِيرَةٍ
تَأْتِيهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَمِنْ خَلْفِهَا بَدَلًا مِنْ هَذِمِهَا دَفْعَةً
وَاحِدَةً فِي ضَرْبَةٍ قَاضِيَةٍ .

فَرُحْنَا نَسْمَعُ دَعْوَةً إِلَى دِرَاسَةِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَلَى
أَسَاسِ إِقْلِيمِيٍّ حَيْثُ يُصْبِحُ بَيْنَ أَيْدِينَا أَدَبُ « شَامِيٍّ » ،
وَأَخَرُ « عِرَاقِيٍّ » ، وَثَالِثُ « مِصْرِيٍّ » ... وَرَابِعُ
« حِجَازِيٍّ » ، وَخَامِسُ « نَجْدِيٍّ » ، وَسَادِسُ
« جَزَائِرِيٍّ » وَهَكَذَا ...

وَكَمْ أَخْرَجْنَا هَؤُلَاءِ الدُّعَاةَ حِينَ كُنَّا نَسْأَلُهُمْ عَنْ
« أَبِي الطَّيِّبِ » الَّذِي وُلِدَ فِي « الْكُوفَةِ » مِنْ أَرْضِ
« الْعِرَاقِ » ... وَغَنَّى أَغْذَبَ أَلْحَانِهِ فِي « حَلَبَ » مِنْ بِلَادِ
« الشَّامِ » ... وَصَاغَ أَحْكَمَ قَوَافِيهِ فِي أَرْضِ الْكِتَانَةِ
« مِصْرَ » ... وَأَعْطَى أَصْدَقَ تَأْمَلَاتِهِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ...

أَهُوَ عِرَاقِيٌّ ، أَمْ شَامِيٌّ ؟؟ ...

أَمْ مِصْرِيٌّ ، أَمْ فَارِسِيٌّ ؟؟ ...

وَفِي أَدَبِ أَيِّ إِقْلِيمٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُوضَعَ أَدَبُهُ ؟؟ .

وَلَيْسَ « أَبُو الطَّيِّبِ » بِدُعَا فِي ذَلِكَ ،
وَلِنَّمَا يُشَارِيهِ^(١) فِي هَذَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أَدَبَائِنَا الْأَفْذَاذِ
مِنْ أَمْثَالِ « أَبِي تَمَّامَ » ، وَ« الْبُخْتَرِيِّ » ، وَ« أَبِي الْعَلَاءِ »
وَمَثَلِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ .

* * *

وَدَعْوَةٌ ثَانِيَةٌ تَحُضُّ عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ...

(١) يشاريه : يجاربه ويزيد عليه في صفاته .

عَلَى أَنَّهُ التُّرْجُمَانُ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ رُوحِ الْجَمَاهِيرِ ، وَهِيَ
دَعْوَةٌ تَهْدِفُ إِلَى إِحْيَاءِ بَعَامِيَّةٍ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ قَدْ أَثْمَرَتْ ثَمَرَتَهَا
الْمَرْجُوءَةَ حِينَ أُنْشِئَ فِي بَعْضِ الْجَامِعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ كُرْسِيٌّ
لِتَدْرِيسِ الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ، فَأَصْبَحَتْ قِصَّةُ الزَّيْرِ ، وَعَنْتَرِ ،
وَسَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنِ ، وَتَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ هِيَ الَّتِي تُدْرَسُ فِي
هَذَا الْقِسْمِ ...

وَقَدْ نَالَ أَحَدُ شَبَابِنَا لَقَبَ دُكْتُورٍ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
لِأَنَّهُ قَدَّمَ بَحْثًا عَنْ قِصَّةِ « عَنْتَرِ » .

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَسَاغًا لَوْ أَنَّنا انْتَهَيْنَا مِنْ
اسْتِخْرَاجِ كُنُوزِنَا الْفَصِيحَةِ كُلِّهَا ، وَفَرَعْنَا مِنْهَا دَرْسًا وَبَحْثًا
وَتَحْقِيقًا وَإِخْرَاجًا ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَدَيْنَا إِلَّا قِصَّةُ « عَنْتَرِ »
وَ« الزَّيْرِ » وَ« تَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ » ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ،
وَنَعْكُفُ عَلَيْهَا .

* * *

وَدَعْوَةٌ ثَالِثَةٌ إِلَى اصْطِنَاعِ هَذَا الشُّعْرِ الْمَشْهُورِ الَّذِي

نَسَمَعُهُ صَبَاحَ مَسَاءٍ ، وَالَّذِي أَفْسَحَتْ لَهُ الْمَجَلَّاتُ
وَالْجَرَائِدُ مَكَاناً رَحِيماً عَلَى صَفَحَاتِهَا ... عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
عُزُوفِ النَّاسِ عَنْهُ ، وَنُفُورِهِمْ مِنْهُ .

* * *

وَدَعْوَةٌ رَابِعَةٌ تُزَيِّنُ لِلنَّاسِ تَيْسِيرَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ ، وَذَلِكَ
بِإِيجَادِ نَحْوٍ جَدِيدٍ يَقْطَعُ صِلَةَ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ ، حَيْثُ ظَهَرَ
فِي أَحَدِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ كِتَابُ نَحْوٍ جَدِيدٍ سَمَّاهُ صَاحِبُهُ
« الْأَخْرُفِيَّةُ » ؛ فَتَلَقَّيْتُهُ الصُّحُفَ الْمَشْبُوهَةَ بِالتَّأْيِيدِ ،
وَتَنَاوَلْتُهُ الْأَقْلَامُ الْمَخْدُوعَةَ بِالتَّقْرِيطِ .

كَمَا ظَهَرَتْ فِي قُطْرِ عَرَبِيٍّ آخَرَ سِلْسِلَةٌ مِنْ كُتُبِ
النَّحْوِ الْمُبْتَدِعِ ، وَفُرِضَتْ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ عَلَى مَرَاجِلِ
التَّعْلِيمِ كُلِّهَا رَدْحاً مِنَ الزَّمَنِ ... وَقَدْ بَلَغَ هَذَا النَّحْوُ حَدّاً
مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نَحْوِنَا الْمَعْرُوفِ ، جَعَلَ عَالِماً كَبِيراً وَمُؤَلِّفاً
مِنْ كِبَارِ مُؤَلِّفِي النَّحْوِ ، يَقُولُ فِي حَدِيثٍ خَاصٍّ :

أَنَّهُ اضْطُرَّ لِلِاسْتِعَانَةِ بِمُدَرِّسٍ مِنْ مُدَرِّسِي وَزَارَةِ
الْمَعَارِفِ لِيُسَاعِدَهُ أَوْلَادُهُ عَلَى فَهْمِ النَّحْوِ الْجَدِيدِ بَعْدَ أَنْ

عَجَزَ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ مُسَاعَدَةِ أَوْلَادِهِ فِي ذَلِكَ .

وَقَدْ عَمَدَ الْمَسْئُولُونَ فِي هَذَا الْقَطْرِ إِلَى الْغَاءِ هَذَا
النَّحْوِ بَعْدَ أَنْ تَصَدَّى الْغِيَارَى عَلَى اللُّغَةِ إِلَى كَشْفِ
مَسَاوِيهِهِ وَبَيَانِ زَيْفِهِ .

* * *

وَدَعْوَةٌ خَامِسَةٌ إِلَى الْإِثْقَاءِ عَلَى الْفُضْحَى مَعَ الْغَاءِ
الْإِعْرَابِ مِنْ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ
طَرِيقَهَا إِلَى مَدَارِسِ بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ .

فَقَدْ كُتِبَتْ لِي زِيَارَةٌ أَحَدِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ
قَرِيبَةِ زِيَارَةِ رَسْمِيَّةٍ ، وَأُتِيحَ لِي أَنْ أَزُورَ بَعْضَ مَدَارِسِ هَذَا
الْقَطْرِ وَأَنْ أَسْتَجِيبَ طُلَّابَهُ ، وَكَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَوْضُوعٌ
يَقْرَأُونَهُ ، وَكَانَ عُنْوَانُ الْمَوْضُوعِ « مَطَرٌ يُنْبِتُ الذَّهَبَ »
وَقَدْ قَرَأَ الطَّالِبُ الْعُنْوَانَ مُسَكَّنًا أَوَاخِرَ كَلِمَاتِهِ الثَّلَاثِ ،
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ مَشْكُوكَةً ، فَقَالَ :

« مَطَرٌ يُنْبِتُ الذَّهَبَ » .

فَقُلْتُ لَهُ : اشْكِلْ أَوَاخِرَ الْكَلِمَاتِ فَلَمْ يَسْتَجِبْ

لي ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَا قُلْتُ لَهُ ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الطَّلَبَ
مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ بِصِيغِ مُخْتَلِفَةٍ اسْتَنْفَذْتُ فِيهَا كُلَّ
مَا أَمْلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ فِي التَّغْيِيرِ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَحَدٍ مُرَافِقِي
وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ التَّعْلِيمِ ، إِلَّا أَنْ اقْتَرَبَ مِنِّي
وَهَمَسَ فِي أُذُنِي قَائِلًا :

إِنَّ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابَ لَا يَعْرِفُونَ الدَّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةَ
لِلْحَرَكَاتِ ، وَهُمْ يُسَكِّنُونَ أَوَاخِرَ الْكَلِمَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ
الْإِيتِدَائِيَّةِ كُلِّهَا .

وَمِنْ حُسْنِ الْحِظِّ أَنَّ الْمَسْئُولِينَ عَنِ التَّعْلِيمِ فِي هَذَا
الْقَطْرِ تَنَبَّهُوا إِلَى خَطَرِ ذَلِكَ ، وَأَصْدَرُوا قَرَارَاتٍ تُوجِبُ
أَخْذَ التَّلَامِيذِ بِشَكْلِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَالْإِزَامِ الْمُعْلَمِينَ
بِذَلِكَ .

* * *

لُغَتُنَا لَيْسَتْ مِلْكَاً لِشَعْبٍ بَعَيْنِهِ

قَدْ لَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّرَبَاتُ الَّتِي أَشْرَتْ إِلَيْهَا هِيَ
جَمِيعُ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْخُصُومُ ... وَقَدْ يَكُونُ فِي جُعْبِهِمْ
سِيَهَامٌ أُخْرَى .

وَلَكِنِّي أَقْدَرُ أَنَّهُمْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةُ لَيْسَتْ
مِلْكَاً لِشَعْبٍ بَعَيْنِهِ ... وَإِنَّمَا هِيَ تَرَاثُ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ
جَمِيعاً عَلَى اخْتِلَافِ دِيَارِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ ... يَنْهَلُونَ مِنْ
مَوَارِدِهِ ، وَيَتَزَوَّدُونَ مِنْ مَعَارِفِهِ ، وَيَتَرَنَّمُونَ بِشِعْرِهِ وَنَثْرِهِ ،
وَيَتَمَثَّلُونَ بِحِكْمِهِ وَأَمْثَالِهِ ، وَيَهْتَدُونَ بِعَبْرِهِ وَعِظَاتِهِ ،
وَيُغَذُّونَ عَوَاطِفَهُمْ بِمَا وَعَاهُ مِنْ آيَاتِ الْفَنِّ وَالْجَمَالِ ...
وَأَنَّهُمْ أَشْهَمُوا جَمِيعاً عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ فِي إِقَامَةِ
أَرْكَانِهِ ، وَإِحْكَامِ بُنْيَانِهِ ...

وَعَمِلُوا يَدَاً وَاحِدَةً خِلَالَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ ،
وَالْمِحَنِ الشُّودِ عَلَى صِيَانَتِهِ مِنْ عَبَثِ الْعَايِثِينَ ، وَحِفْظِهِ
مِنْ عُذْوَانِ الْعَادِينَ ...

وَبَدَلُوا كُلَّ مَا مَلَكَوهُ مِنْ طَاقَةٍ وَجْهٍ لِمَدِّهِ بِأَفْضَلِ
مَا أُنتَجَتْهُ قَرَائِحُهُمْ ، وَتَزْوِيدِهِ بِأَكْرَمِ مَا أُعْطَتْهُ عُقُولُهُمْ ؛
حَتَّى غَدَا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا كَبِيرًا ، تَعْتَزُّ بِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
وَتَفْخَرُ بِهِ ، وَيَشْعُرُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أُنْبَائِهَا أَنَّ هَذَا الثَّرَاثَ قِطْعَةٌ
مِنْ كَيَانِهِ ، وَبُضْعَةٌ مِنْ فُؤَادِهِ ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى بَقَائِهِ ، لِأَنَّ فِيهِ
حَقِيقَتَهُ وَحَقِيقَةَ أُمَّتِهِ .

وَإِنَّ ثَرَاتًا هَذَا شَأْنُهُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدٌ
بِالتَّخْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ .

وَأَيُّ تَغْيِيرٍ فِي أُسُسِهِ هُوَ مِنْ حَقِّ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ ...

وَهُمْ يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ وَيَتَوَحَّدُونَ سَيَكُونُونَ أَشَدَّ
حِرْصًا عَلَى لُغَتِهِمْ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ سَلَفَ ...

لِأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ آنَذَاكَ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الَّتِي يَسَّرَتْ لَهُمْ
نِعْمَةَ الْوَحْدَةِ فَيَعْدُونَ أَشَدَّ اسْتِمْسَاكَ بِهَا ، وَأَعْظَمَ حِرْصًا
عَلَيْهَا ، وَأَكْثَرَ بِرًّا بِهَا .

* * *

تَفَرُّدُ لُغَتِنَا وَتَمَيُّزُهَا

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أُعْجُوبَةُ الْأَعَاجِبِ فِي وَضْعِهَا
الْمُحْكَمِ وَبَنَائِهَا الدَّقِيقِ الْمُنْظَمِ ، فَمَنْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَسْتَجْلِي
غَوَامِضَهَا وَيَقِفَ عَلَى دَقَائِقِهَا أَتَقَنَّ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ الْكَرِيمَةَ
قَدْ وُضِعَتْ بِإِلْهَامِ الْحَكِيمِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَلَتْ كَلِمَتُهُ .

وَلَيْسَ عَلَى مَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى غِنَى لُغَةِ الْقُرْآنِ ،
وَالِاسْتِثْنَاءِ (١) مِنْ مَبْلَغِ قُدْرَتِهَا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ شُؤْنِ
الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، إِلَّا أَنْ يَقِفَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ عَشْرَاتِ
مُعْجَمَاتِ الْمَعَانِي الَّتِي حَفِلَتْ بِهَا الْمَكْتَبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ،
وَأَنْ يَتَصَفَّحَ فَهَارِسَ هَذِهِ الْمُعْجَمَاتِ ...

فَإِنَّهُ سَيَجِدُ فِيهَا مِنْ غِنَى الْمَفْرَدَاتِ ، وَوَفَرَةِ
الدَّلَالَاتِ ، وَدِقَّةِ التَّعْبِيرِ ، وَبَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ ، مَا يُذْهِلُ
لُبَّهُ (٢) .

(١) الاستِثْنَاءُ : التَّأَكُّدُ مِنْ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ .

(٢) يَذْهَلُ لَهُ : اللَّبُّ هُوَ الْعَقْلُ ، وَذَهْوُلُ اللَّبِّ شِدَّةُ تَحِيرِهِ .

وَلَوْ أَخَذْنَا - عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ - مَا جَاءَ مِنْ أَثَرِ
الْأَشْيَاءِ عَلَى الْيَدِ لَوَجَدْنَا الْعَرَبَ تَفَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَثَارِ
تَفْرِيقًا عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي آيَةٍ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ ، فَالْعَرَبُ
تَقُولُ :

يَدُ فُلَانٍ مِنَ اللَّحْمِ غَمِرَةٌ ... وَمِنَ الزَّيْتِ قَنِمَةٌ ...

وَمِنَ السَّمَكِ صَمِيرَةٌ ... وَمِنَ الشَّحْمِ زَهْمَةٌ ...

وَمِنَ الْبَيْضِ زَهَكَةٌ ... وَمِنَ الدَّهْنِ زَنَخَةٌ ...

وَمِنَ الْخَلِّ خَمِطَةٌ ... وَمِنَ الْعَسَلِ لَزَجَةٌ ...

وَمِنَ الْفَاكِهَةِ لَزَقَةٌ ... وَمِنَ الدِّمِ ضَرِجَةٌ ...

وَمِنَ الْمَاءِ لَثَقَةٌ ... وَمِنَ الْحَدِيدِ سَهَكَةٌ ...

وَمِنَ الْبَوْلِ وَشَكَةٌ ... وَمِنَ الْوَسَخِ دَرِنَةٌ .

« وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى وَزْنِ فِعْلَةٍ » ^(١) إِلَى آخِرِ مَا وَعَثَهُ

كُتِبَ اللُّغَةُ فِي هَذَا الْبَابِ وَهُوَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ .

(١) فقه اللغة : ٨٨ .

كَمَا فَصَّلَتِ الْعَرَبُ الْكَلَامَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَأَنْوَاعِهَا
وَجَعَلَتْ لِكُلِّ نَوْعٍ اسْمًا خَاصًّا بِهِ :

فَإِذَا كَانَ الْمَالُ مَوْزُوثًا فَهُوَ : تِلَادٌ .

فَإِذَا كَانَ مُكْتَسِبًا فَهُوَ : طَارِفٌ .

فَإِذَا كَانَ مَذْفُونًا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ : رِكَازٌ .

فَإِذَا كَانَ ذَهَبًا وَفِضَّةً فَهُوَ : صَامِتٌ .

فَإِذَا كَانَ إِبِلًا وَغَنَمًا فَهُوَ : نَاطِقٌ .

فَإِذَا كَانَ ضَيْعَةً وَمُسْتَعْلًا فَهُوَ : عَقَارٌ .

وَفِي أَسْمَاءِ الْحُمَيَّاتِ قَالَتِ الْعَرَبُ :

إِذَا كَانَتِ الْحُمَى لَا تَدُورُ بَلْ تَكُونُ نَوْبَةً وَاحِدَةً

فَهِىَ : حُمَى يَوْمٍ ... فَإِذَا كَانَتْ نَائِبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَهِىَ :

الْوَرْدُ ... فَإِذَا كَانَتْ تَتَوَّبُ يَوْمًا وَيَوْمًا لَا فَهِىَ : الْغُبُّ ...

فَإِذَا كَانَتْ تَتَوَّبُ يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ لَا ، ثُمَّ تَعُودُ فِي الرَّابِعِ

فَهِىَ : الرَّبْعُ ... فَإِذَا دَامَتْ وَأَقْلَقَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ ، فَهِىَ :

الْمُطَبِّقَةُ ... فَإِذَا قَوِيَتْ وَاشْتَدَّتْ حَرَارَتُهَا وَلَمْ تُفَارِقِ

الْبَدَنَ فِيهِ : الْمُخْرِقَةُ ... فَإِذَا دَامَتْ مَعَ الصُّدَاعِ أَوْ الثَّقَلِ
فِي الرَّأْسِ ، وَالْحُمْرَةِ فِي الْوَجْهِ وَكَرَاهَةِ الضُّوءِ فِيهِ :
الْبِرْسَامُ .

وَعِنَى الْعَرَبِيَّةِ هَذَا لَيْسَ وَقْفًا عَلَى شُؤْنِ الْحَيَاةِ
الْمَادِيَّةِ وَحَدَهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مُتَوَافِرٌ فِي الشُّؤْنِ الْمَعْنَوِيَّةِ
أَيْضًا .

فَالشُّجَاعَةُ لَهَا عِنْدَ الْعَرَبِ دَرَجَاتٌ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ
لَفْظٌ خَاصٌّ بِهَا ...

وَالْجُودُ لَهُ مَرَاتِبٌ وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ كَلِمَةٌ تُؤَدِّيهَا ...
وَالْغَضَبُ لَهُ مَرَاجِلُ وَلِكُلِّ مَرَحَلَةٍ حَرْفٌ يُغْرِبُ
عَنْهَا . وَهَكَذَا ...

وَمَنْ يَقِفْ عَلَى كُتُبِ « فِقْهِ اللُّغَةِ » يَجِدُ لِكُلِّ مَعْنَى
يَجُولُ فِي ذَهْنِهِ لَفْظًا ، وَلِكُلِّ سُؤَالٍ يَدُورُ فِي خَلْدِهِ ^(١)
جَوَابًا .

(١) الْخَلْدُ : الْبَالُ وَالنَّفْسُ .

وَقَدْ يَقُولُ فَرِيقٌ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ :

إِنَّنَا لَا نُمَارِي ^(١) فِي قُدْرَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ عَلَى الْوَفَاءِ
بِمَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الْمَعَاشِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لِهَذِهِ
اللُّغَةِ أَنْ تَفِي بِحَاجَاتِ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ !!؟ ...

وَهِيَ لُغَةٌ نَبَتَتْ أَصُولُهَا فِي الصَّحْرَاءِ ...

وَنَمَتْ فُرُوعُهَا فِي بِيئَاتٍ لَمْ تُدْرِكْ عَصْرَ الْبُخَارِ
وَالْكَهْرَبَاءِ ... فَضْلاً عَنْ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ .

وَلِهَؤُلَاءِ نَقُولُ :

مَا إِنْ عَادَتِ الْمَرْكَبَةُ الْقَمَرِيَّةُ الَّتِي أَطْلَقَهَا
« الْأَمْرِيكَانُ » إِلَى أُمِّهَا الْأَرْضِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَضْحُوَ
الْبَشَرِيَّةُ مِنْ دَهْشَتِهَا وَذُحُولِهَا ... كَتَبَ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ
الدُّكْتُورُ « أَحْمَدُ زَكِي » فِي مَجَلَّةِ « الْعَرَبِيِّ » بَحْثاً قِيَّماً
شَيْقاً مُسْتَفِيزاً عَنْ هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ ...

عَبَّرَ فِيهِ بِلُغَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيحَةٍ عَنْ حَقَائِقِ هَذِهِ

(١) لا نماري : لا نشك .

الرَّحْلَةَ وَدَقَائِقِهَا تَغْيِيرًا يُخَيِّلُ مَعَهُ لِلْمَرْءِ أَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ
صَنَعْنَا مَرْكَبَةَ الْفَضَاءِ لَا « الْأَمْرِيكَانُ » ...

وَأَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ صَعِدْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَا هُمْ .

وَهُوَ مَقَالٌ يَدُلُّ عَلَى بَرَاعَةِ كَاتِبِهِ مِنْ جِهَةٍ ، كَمَا
يَدُلُّ عَلَى عِبْقَرِيَّةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَقُدْرَتِهَا غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ مِنْ
جِهَةٍ أُخْرَى .

* * *

وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَى هَذَا لُغَةٌ ذَاتُ صَيِّغٍ ثَابِتَةِ النُّطْقِ ،
مَعْلُومَةِ الدَّلَالَةِ ، فَمَا دَلَّ عَلَى مَنْ قَامَ بِالفِعْلِ مِنْ
« الثَّلَاثِي » ^(١) صَيِّغَ عَلَى وَزْنِ « فَاعِلٍ » :

كَعَابِدَ ، وَحَامِدَ ، وَشَاكِرَ ...

وَمَا دَلَّ عَلَى مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الفِعْلُ صَيِّغَ عَلَى وَزْنِ
« مَفْعُولٍ » : كَمَغْبُودٍ ، وَمَحْمُودٍ ، وَمَشْكُورٍ .

وَمَا يُقَالُ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ ، وَاسْمِ الْمَفْعُولِ ...

(١) الفعل الثلاثي : هو الفعل المكون من ثلاثة أحرف .

يُقَالُ فِي اسْمِ الزَّمَانِ ، وَالْمَكَانِ ، وَالْآلَةِ ،
وَالْتَّعَجُّبِ ، وَالتَّفْضِيلِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَتَمَتَّعُ بِخَاصَّةٍ الْإِشْتِقَاقِ الَّتِي
حُرِمَتْ مِنْهَا جُلُّ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ... وَهِيَ خَاصَّةٌ جَعَلَتْ
مِنْ لُغَةِ الضَّادِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً ، مِمَّا أَدَّى إِلَى ضَبْطِ نِظَامِهَا ،
وَاطِّرَادِ (١) أَحْكَامِهَا ، وَإِغْنَاءِ مَادَّيْهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةً وَلُوداً
عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ .

فَالِإِشْتِقَاقُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَمَّعُ
فِي أُسْرِ ... وَجَعَلَ لِكُلِّ أُسْرَةٍ حُرُوفاً مُشْتَرَكَةً تَتَوَافَرُ فِي
جَمِيعِ أَفْرَادِهَا ... وَمَعْنَى عَامّاً مُشْتَرَكاً يَشِيعُ مِنْ سَائِرِ
مُفْرَدَاتِهَا ...

ثُمَّ تَنْفَرِدُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ الْأُسْرَةِ بِصِيغَةٍ
خَاصَّةٍ تُمَيِّزُهَا عَمَّا عَدَاهَا ، وَبِمَعْنَى جُزْئِيٍّ تَخْتَصُّ بِهِ مِنْ
دُونِ أَخَوَاتِهَا ...

(١) الاطراد : هو التابع والتسلسل .

يَتِمَّا غَلَبَتِ الْفُرْدِيَّةُ عَلَى اللُّغَاتِ الْأُجْنِبِيَّةِ .

فَلِنَأْخُذْ - مَثَلًا - مَادَّةَ « النَّشْرِ » فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
فَسَوْفَ نَجِدُ أَنَّ فِي وَسْعِنَا أَنْ نَشْتَقَّ مِنْهَا الْأَفْعَالَ الثَّلَاثَةَ :
نَشَرَ ، وَيَنْشُرُ ، وَانْشَرُ ...

كَمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُؤَلِّدَ مِنْهَا اسْمَ الْفَاعِلِ « نَاشِرٌ » ،
وَاسْمَ الْمَفْعُولِ « مَنْشُورٌ » ، وَاسْمَ الْآلَةِ « مِنْشَارٌ » ، وَاسْمَ
الْمَكَانِ « مَنْشَرٌ » وَهَكَذَا ...

يَتِمَّا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ فِي اللُّغَةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » مَثَلًا
صِلَةً بَيْنَ الْأَخِ وَأُخْتِهِ ، فَالْأَخُ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ Frère
وَالْأُخْتُ Soeur وَهُمَا كَلِمَتَانِ مُتَنَافِرَتَانِ فِي النُّطْقِ
مُتَنَافِرَتَانِ فِي الصِّيغَةِ لَا تَمُتُ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى
بِسَبَبٍ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » يُقَالُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَنِ
« الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، فَهِيَ لُغَةٌ الْفُرْدِيَّةِ وَالشُّدُودِ .

* * *

وَأَمَّا قَضِيَّةُ جُمُودِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَعَدَمِ تَطَوُّرِهَا مَعَ الزَّمَنِ
- كَمَا يُزَجِّفُ الْمُرْجِفُونَ^(١) - فِتِلْكَ قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ وَدَعْوَةٌ
تَبْدُو عَلَى ظَاهِرِهَا مَلَامِيحَ الرَّحْمَةِ ، وَتَكْمُنُ فِي بَاطِنِهَا
صُنُوفُ الْعَذَابِ .

فَلَقَدْ أَمْضَ^(٢) أَغْدَاءُ هَذِهِ اللُّغَةِ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ
الْوَحِيدَةَ بَيْنَ لُغَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي اتَّصَلَ تَلِيدُ^(٣) تُرَاثِهَا
بِطَرِيفِهِ خِلَالَ خَمْسَةِ عَشَرَ قَرْنًا ...

امْتَدَّتْ مُنْذُ « النَّابِغَةِ »^(٤) فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى
« شَوْقِي »^(٥) فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، وَالَّتِي يَسْتَطِيعُ
الْمَلَايِينُ مِنْ أَبْنَائِنَا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ وَقِرَاءَةَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَأَنْ يَفْقَهُوا مَعَانِيَهُمَا ،

(١) المرجفون : الذين يأتون بأخبار كاذبة وأقوال سيئة بقصد إثارة الفتنة .

(٢) أمض : ألم أشد الألم .

(٣) التليد : القديم العريق .

(٤) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية من فحول شعراء الجاهلية ، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق « عكاظ » فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها توفي نحو ١٨ قبل الهجرة .

(٥) أحمد شوقي : (١٨٦٨ - ١٩٣٢ م) من أشهر شعراء العصر الأخير ولقب بأمير الشعراء ، وهو أول من جود القصص الشعري التمثيلي بالعربية .

وَأَنْ يُذِرْكُوا هَذِيهْمَا ، وَأَنْ يَسْتَشْعِرُوا عَظَمَتَهُمَا ، وَأَنْ
يَتَمَلَّؤُوا مِمَّا خَفَلَا بِهِ مِنْ صِلَاحٍ ، وَإِضْلَاحٍ .

وَأَنْ يَقِفَ هَؤُلَاءِ الْأُبْنَاءُ عَلَى الْأَثَارِ الَّتِي خَلَفَهَا
« زُهَيْرٌ » ^(١) فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَ« عَلِيٌّ » ^(٢) فِي صَدْرِ
الْإِسْلَامِ ، وَ« عَبْدُ الْحَمِيدِ » ^(٣) زَمَنَ بَنِي « أُمَيَّة » ،
وَأَبُوتَمَّامٍ وَالْمُتَنَّبِيَّ فِي عَصْرِ بَنِي « الْعَبَّاسِ » ، وَمَنْ
إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْرَاءِ الْبَيَانِ ...

وَأَنْ يَتَنَفَّعُوا مِمَّا فِي هَذِهِ الْأَثَارِ مِنْ مَوْعِظَةٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَأَنْ يَتَذَوَّقُوا مَا خَفَلَتْ بِهِ مِنْ فَنٍّ وَجَمَالٍ ...

وَأَنْ يَعِيشُوا التَّجَارِبَ الَّتِي مَرَّتْ بِأَسْلَافِهِمُ الْعِظَامَ ،
وَأَنْ يَخْيُوا مَعَهُمْ بِعَوَاطِفِهِمْ وَمَشَاعِيرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ...

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ، يعتبر من
أشعر شعراء عصره .

(٢) عَلِيٌّ : هو عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) هو عبد الحميد الكاتب توفى سنة ٧٥٠م ، أول من أنشأ أسلوب الرسائل
في الأدب العربي ، عمل في بلاط الأمويين ، وخدم مروان بن محمد آخر
خلفائهم ، وله ست رسائل أشهرها « رسالة إلى الكتاب » امتاز بلمغة متينة
وأسلوب رائع .

وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَرَاكِزَ التِّقَاءِ يَجْتَمِعُونَ
عِنْدَهَا وَيَتَعَارَفُونَ عَلَى صَعِيدِهَا ... بَيْنَمَا لَا يَسْتَطِيعُ سِوَا
السُّبَّانِ الْمُثَقِّفِينَ مِنَ «الْإِنْكَلِيزِ» مَثَلًا قِرَاءَةً مَا كَتَبَهُ
«شِكْسْبِير»^(١) مُنْذُ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَعُسْرِ .

أَمَّا مَا كُتِبَ قَبْلَ «شِكْسْبِير» ، فَقَدْ اسْتَحَالَ عَلَيْهِمْ
فَهْمُهُ ، وَحَالَ دُونَهُمْ وَدُونَهُ ذَلِكَ التَّطَوُّرُ الَّذِي يَدْعُونَنَا
إِلَيْهِ ، وَيَحْضُرُونَنَا عَلَى الْأَخْذِ بِهِ .

وَقَدْ فُتِنَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى تَطْوِيرِ هَذِهِ اللُّغَةِ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْ
أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا وَهُمْ نَاسُونَ أَوْ مُتَنَاسُونَ مَا جَرَّه تَطَوُّرُ اللُّغَاتِ
الْأُورُوبِيَّةِ عَلَى أَصْحَابِهَا مِنْ بَلَاءٍ ، حَيْثُ قَطَّعَ أَوْصَالُهَا ،
وَمَزَّقَ وَخَدَّتْهَا ...

وَجَعَلَهَا أَمَّا مُتَعَدِّدَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أُمَّةً وَاحِدَةً .

* * *

(١) وليم شكسبير William Shakespear : (١٥٦٤ - ١٦١٦م)
يعتبر من أعظم الشعراء الإنكليز بلا استثناء ، وضع عدداً من المسرحيات
الشعرية الخالدة .

حَقُّ أُنْبَائِنَا عَلَيْنَا

وَبَعْدُ ... فَقَدْ أَوْصَلَ إِلَيْنَا الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ هَذِهِ اللُّغَةَ
كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ، سَلِيمَةً مِنْ غَيْرِ عَوَجٍ ...

وَذَاذُوا^(١) عَنْهَا خِلَالَ الْمِحْنِ وَالْكَوَارِثِ أَكْرَمَ
الذُّودِ ... فَمِنْ حَقِّ أُنْبَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ الْأَمَانَةَ
كَامِلَةً ، وَأَنْ نُبَلِّغَهُمُ الرِّسَالَةَ تَامَّةً ، وَأَنْ نُجَاهِدَ مِنْ أَجْلِهِمْ
كَمَا جَاهَدَ آبَاؤُنَا مِنْ أَجْلِنَا .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أُنْبَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُشْكِتَ الْأَفْوَاهَ الَّتِي
ذَابَتْ^(٢) عَلَى تَشْكِيكِهِمْ بِلُغَتِهِمْ ، وَجَهَدَتْ عَلَى وَصْفِهَا
بِالصُّعُوبَةِ وَنَعْتِهَا بِالْعُسْرِ ، حَتَّى سَاءَ ظَنُّهُمْ بِهَا ، وَقَلَّتْ
ثِقَتُهُمْ بِصَلَاحِهَا ، وَرَسَخَ فِي أَذْهَانِهِمْ أَنَّهُمْ جِيلٌ مُبْتَلَى
بِهَذِهِ اللُّغَةِ ، مَكْدُودٌ^(٣) فِي تَعْلِيمِهَا ، مُحْمَلٌ مِنْ أَجْلِهَا
مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ .

(١) ذادوا : دافعوا عن الشيء واستماتوا في حمايته .

(٢) الدَّابُ : هو الجِدُّ فِي الْعَمَلِ وَالتَّعَوُّدُ عَلَيْهِ بِلا مَلَلٍ .

(٣) المَكْدُودُ : الْمُتَعَبُ الْمَغْلُوبُ عَلَى أَمْرِهِ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أبنائنا عَلَيْنَا أَنْ نُكَافِحَ أولئك الذين
يُحاولُونَ أَنْ يَضَعُوا عَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوةً تَحْجُبُهُمْ عَنْ
رُؤيةِ الأُمُورِ عَلَى حَقِيقَتِهَا ... وَتُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ الحَيَاةَ كُلَّهَا
سُهُولةٌ وَيُسْرٌ ، وَأَنَّ عَلَى الأشياءِ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ طَبَائِعِهَا مِنْ
أَجْلِ مَرْضَاتِهِمْ ، وَأَنَّ فِي مَيَادِينِ العَيْشِ أُمُكِنَةُ رَحِيبةٌ لِغَيْرِ
أَصْحَابِ الدَّأْبِ وَالْجِدِّ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أبنائنا عَلَيْنَا أَنْ نُيسِّرَ لَهُمْ تَعَلَّمَ هَذِهِ اللُّغَةِ
لَا أَنْ نُمْنِّيَهُمْ بِتَيْسِيرِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا ، وَأَنْ نُغْنِيَ بِهِذِهِ اللُّغَةِ
عِنايةً كَافيةً فِي مَدَارِسِنَا ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَ مُعَلِّمُونَا وَمُدَرِّسُونَا
جَمِيعاً عَلَى تَعْلِيمِهَا مَهْماً اخْتَلَفَتْ مَوَادُّهُمْ ، وَأَلَّا يَكِلُوهَا
إِلَى دَرَسِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَمُعَلِّمِهَا وَحْدَهُمَا ، فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا
ذَلِكَ مَضَتْ قُرُونٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الفُضْحَى لُغَةً
الْكِتَابِ وَالْخِطَابِ ...

وَأَنْ يَضَعُوا نُصَبَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّ اللُّغَةَ لَا تُعَلَّمُ
إِلَّا بِالْمُمَارَسَةِ وَالْمُحَاكَاةِ ، وَأَنْ تَلْمِذَهُمْ يَأْخُذُ لُغَتَهُ
عَنْهُمْ جَمِيعاً ، وَأَنَّهُ كَائِنْ يُحِسُّ الْجَمَالَ فِي التَّعْبِيرِ كَمَا

يُحِشُّهُ فِي الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى ، وَأَنْ بِاسْتِطَاعَةِ أَيِّ مِنْهُمْ أَنْ
يَكُونَ أَوْفَرَ نَصِيباً فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ لِتَلَامِيذِهِ مِنْ مُعَلِّمِ اللُّغَةِ
نَفْسِهَا إِذَا هُوَ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى ذَلِكَ وَسَعَى لَهُ سَعْيُهُ .

إِنْ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ أَنْ يُوقِنُوا أَنَّنا
إِذَا عَوَّلْنَا عَلَى الْمَدْرَسَةِ وَخَدَهَا فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ فَقَدْ تَمْضِي
مِائَةٌ عَامٍ قَبْلَ أَنْ تَضِيقَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الْفُضْحَى وَالْعَامِيَّةِ ...

وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى
تَعْلِيمِ الْفُضْحَى مَا لَا تَمْلِكُهُ الْمَدَارِسُ ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَيْهَا اسْتِعْمَالَ
الْعَامِيَّةِ تَحْرِيماً قَاطِعاً ، وَأَنْ يَحْمِلُوهَا عَلَى اسْتِعْمَالِ
الْفُضْحَى فِي جَمِيعِ مَا يُذَاعُ مِنْ تَمْثِيلَاتِنَا ، وَمَا يَبْتَغِي مِنْ
بَرَامِجِنَا ، وَمَا تُقَدِّمُهُ الْمَسَارِخُ وَدُورُ « السَّيْنِمَا » لِرُؤَادِهَا
مِنْ رَوَايَاتٍ وَمَسْرَحِيَّاتٍ ...

حَتَّى لَا يَسْمَعَ النَّاشِئَةُ مِنْهَا مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ لُغَتَهُمْ ،
وَيُشَوِّهُ لَهُمْ نُطْقَهُمْ ، وَيُمْكِّنُ لِلْعَامِيَّةِ مِنَ أَلْسِنَتِهِمْ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أُنْبَاءِنَا عَلَى الْحُكُومَاتِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ تَسُنَّ
قَوَانِينَ تُلْزِمُ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْمُتَرْجِمِينَ بِاسْتِعْمَالِ الْفُضْحَى فِي
كُلِّ مَا يُقَدِّمُونَهُ لِلنَّاسِ ، وَأَلَّا تَسْمَحَ بِنَشْرِ كِتَابٍ مِنْهُمَا
كَانَتْ صِبْغَتُهُ إِلَّا إِذَا خَضَعَ لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ ، وَجَرَى عَلَى
أَسَالِيِبِهَا ...

وَأَنْ تَحُولَ دُونَ صُدُورِ الْكُتُبِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى
التَّحْلِيلِ مِنَ الْفُضْحَى وَتَحْضُ عَلَى التَّرْخُصِ فِي أَسَالِيِبِهَا ،
وَتُرُوجُ لِلْعَامِّيَّةِ وَتَعْمَلُ عَلَى نَشْرِهَا ، وَأَنْ تَنْظُرَ إِلَى هَذَا
الْمَوْضُوعِ كَمَا تَنْظُرُ إِلَى أَيِّ عَمَلٍ تَخْرِيْبِيٍّ يَمَسُّ كِيَانَ
الدَّوْلَةِ وَسَلَامَةِ الْأُمَّةِ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أُنْبَاءِنَا عَلَيْنَا أَنْ يُؤْمِنَ أَدْبَاؤُنَا وَحَمَلَةُ
الْأَقْلَامِ مِنَّا بِأَنَّ لَهُمُ الْيَوْمَ رِسَالَةً لُغَوِيَّةً إِلَى جَانِبِ رِسَالَتِهِمْ
الْفِكْرِيَّةَ ، وَأَنْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ تُحْتَمُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَثِّرُوا الْفَصِيحَ
مِنَ الْقَوْلِ وَلَوْ كَانَ مَجْفُوعًا عَلَى الْفَاسِدِ وَلَوْ كَانَ مَأْلُوفًا ،
حَتَّى يَأْلَفَ الْأُنْبَاءُ أَسَالِيِبَ لُغَتِهِمُ الصَّافِيَّةَ ...

وَبِذَلِكَ تَنْسَابُ لُغَةُ الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ شَفَاةٍ ، وَتَتَرَدَّدُ

عَلَى كُلِّ مَسْمَعٍ ، وَيُتَرَنَّ بِهَا فِي كُلِّ مَحْفِلٍ ...
فَتُنْشِغِلُ بِهَا النُّفُوسُ ، وَتُسْتَمْتِعُ بِهَا الْأَفْعِدَةُ ، وَتَأْنَسُ
بِهَا الْأَذْوَاقُ ...

فَتُصْبِحُ فِي غَدِهَا الْقَرِيبَ كَمَا كَانَتْ فِي أُمْسِهَا
الْبَعِيدِ خَيْرَ لُغَةٍ لِخَيْرِ أُمَّةٍ .

وَاللَّهُ نَسْأَلُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْفِكْرِ وَالْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ ...

وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْداً .

* * *

الفهرس

- قِيمَةُ اللُّغَةِ فِي حِفْظِ كَيَانِ الْأُمَمِ ٧
- الْعُدْوَانُ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ ١٥
- أ - إِيْخْلَالُ الْعَامِّيَّةِ مَحَلِّ الْفُضْحَى ٢١
- ب - إِيْخْلَالُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ
- مَحَلِّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ ٣٠
- ج - الضَّرَبَاتُ الْخَفِيَّةُ ٣٥
- لُغَتُنَا لَيْسَتْ مِلْكَاً لِشَعْبٍ بَعِيْنِهِ ٤١
- تَفَرُّدُ لُغَتِنَا وَتَمَيُّزُهَا ٤٣
- حَقُّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا ٥٥

* * *

كتب للمؤلف

- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد .
- شعر الطُّرد « إلى نهاية القرن الثالث الهجري » .
- علي بن الجَّهم « حياته وشعره » .
- صور من حياة الصحابة .
- صور من حياة الصحابيَّات .
- صور من حياة التَّابعين .
- الدِّين القيم .
- أرض البطولات .
- البطولة .
- الصَّيد عند العرب « أدواته وطرقه - حيوانه الصَّائد والمصيد » .